المسارعة إلى فعل الخيرات ونعمة بلوغ رمضان شهر الرحمات

2024-03-01

الحمد لله ربّ البريّات، واسع العطايا وجزيل الهبات، يمنّ على عباده بمواسم الخيرات، ليغفر لهم بذلك الذنوب ويكفّر عنهم السّيّئات، وليضاعف لهم به الأجور ويرفع الدرجات، فسبحانه من إله اخْتَارَ لِلْخَيْرَاتِ مَوَاسِمَ وَأَوْقَاتًا، وَتَوَلَّى عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ بِالإِنْعَامِ وَالإِكْرَامِ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، وجَعَلَ شهر رَمَضَانَ لِفَرْضِ الصِّيَامِ وَالتَّنَافُسِ فِي الخَيْرَاتِ زَمَانًا وَمِيقَاتًا، ونحمده تعالى بكمالاتِه التي بهرت العقول بهرًا، ونشكره على نعَمِه التي لا نحيطها عدًّا ولا حصرًا، ونتضرّع إليه أن يكفيَنا ما أهمّنا دنيا وأخرى، ونرجوه أن يجلّلِ ذنوبنا مغفرةً وعيوبَنا سِترًا، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له، سَهَّلَ لِلْعِبَادِ طُرُقَ الخَيْرِ وَيَسَّرَ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَوَابِغِ الإِنْعَامِ مَا لا يُعَدُّ وَلا يُحْصَرُ، وجَعَلَ شَهْرَ رَمَضَانَ لِلْبَرَكَاتِ مَنْزِلاً، وَلِلفَضَائِلِ مَوْطِنًا وَمَحَلًّا، وأَشْهَدُ أَنَّ سيِّدَنا مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ، وصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وخَلِيلُهُ، رسول الرحمة. وسرّ ما نحن فيه من نعمة. أكرمنا الله ببعثته. وزاد في إكرامنا فجعلنا من أمّته. وزاد في فضله فوفّقنا لاتّباع سنّته، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من أهل شفاعته. وأن يحشرنا في الآخرة تحت لواء حضرته. وأن يسكننا جواره في جنّته.

فمَنْ مثلُنا هذا الوجيه رسولُنا * إلى أمْره دانت وذلّت جهنّمُ

رؤوفٌ رحيمٌ بالبريّة شافعٌ * علينا به المولى يتوب ويحلُمُ

فيا معشر الإخوان بالله فاشكروا * وصلّوا عليه أجمعون وسلِّموا

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك على سيّدنا محمّد. بغية السالكين المنتسِبين إلى الله. وعلى آله ذوي السيادة والجاه. وصحابته الفائزين برضى الله. صلاة تجعلنا بها من المهتدين بهداه. المغترفين من بحر كرمه ونداه. الساعين في تحصيل طاعته ونيل رضاه. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب

العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. الإنسان بحُسن عملِه لا بطُول عُمره، ولقد عوَّضَ اللهُ أمّةَ الإسلام عن قِصَر أعمارِها بركَةَ أعمالِها، ومواسِمَ خيراتٍ مِن نفَحَاتِ دَهرِها، في نفَحَاتٍ ومُناسبَاتٍ لا تتناهَى. يخرُجُ المُؤمنُ مِن عبادةٍ ليستَقبِلَ أُخرى، ومَن لا يُطيقُ عبادةً مندوبة يَنتَقِلُ إلى غيرِها، قال الله تعالى في سورة البقرة: ((وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا)). والمُؤمنُ كيِّسٌ فَطِنٌ، يعلَمُ أنّ أنفاسَهُ معدُودة، وأيَّامَه محدُودة، والحياةَ فُرَص. فمَن أحسَنَ اغتِنامَها فازَ وسعَد، ومَن ضيَّعَ وفرَّط فلا يلُومنَّ إلا نفسَه. أخرج الحاكم النَّيْسابوري في

المستدرَك على الصحيحين عن عبد الله ابن عباس، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل وهو يعظه: ((اغتَنِم خَمساً قبلَ خَمسٍ: شَبابَك قبلَ هَرَمِك، وصِحَّتَك قبلَ سَقَمِك، وغِناكَ قبلَ فَقرِك، وفَراغَكَ قبلَ شُغلِك، وحياتَك قبلَ مَوتِك)). أيّها المسلمون. والمُسارعةُ إلى الخيرات خُلُقٌ عظيمٌ، ومسلَكٌ كريمٌ. لا يتَّصِفُ به إلا الجادُّون المُشمِّرون، والمُسابقةُ إلى أعمالِ البِرِّ طبعٌ لا يتخلَّقُ به ولا يُهدَى إليه إلا مَن وهَبَه الله تعالى علُوَّ همَّة، وقُوَّةَ عزيمَة، مع سلامةِ قلبٍ، ورَجاحَةِ عقلٍ، وانشِراحِ صَدرٍ. والأمرَ بالإستِباقِ إلى الخيراتِ. قَدرٌ زائِدٌ على الأمرِ بفعلِ الخيرات؛ فإنّ الإستِباقَ إلى الخَيراتِ يستَدعِي فِعلَها وتكمِيلَها على أكملِ الهيئاتِ والأحوالِ، مع المُبادرةِ في ذلك والمُسارَعة. وممّا يُعينُ على التنافُس في الصالِحات، والمُسارَعة إلى الخَيرات: معرفةُ قَدْر الدنيا بالنسبةِ للآخرة. حتى قال بعضُ السلَف: (لو كانت الدُّنيا من ذهبٍ يَفنَى، والآخرةُ مِن خَزَفٍ يَبقَى، لكان المُتعيِّنُ على العاقِل أن يُؤثِرَ الخَزَفَ الذي يَبقَى على الذَّهَب الذي يَفنَى، فكيف والآخرةُ هي الذَّهبُ الذي يَبقَى، وهي خيرٌ وأَبقَى). وإنّ ممّا يُعينُ على التنافُس في الصالِحات كذلك: صُحبةُ الأخيار، وعَدمُ التوسُّع في المُباحات، والحَزمُ والعَزمُ، وأَخْذُ الأمر بجدّ واجتهاد، والإكثارُ مِن العباداتِ وقتَ الفراغِ. وإذا كان التأنِّي والتّمهُّلُ مطلُوباً في أمورِ الدنيا، فإنّ أعمالَ الآخرة مطلُوبٌ فيها المُسارَعةُ والمُبادرةُ

والمُسابقةُ، يقول عزَّ شأنُه في سورة طه حكاية عن سيّدنا موسى عليه السلام: ((وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)). وقد ورَدَ في صحيح أبي داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((التُّؤدَةُ في كلِّ شيءٍ إلا في عملِ الآخرة)). ويقولُ الإمامُ أحمد رحمه الله: (كلُّ شيءٍ مِن الخير يُبادَرُ إليه). أيّها المسلمون. بعد أيام إن شا الله يستقبل العالم الإسلامي بأسره شهر رمضان المبارك، وهو مَيدانٌ عظيم للتسابق والتنافس في الطاعات، مَن تقرَّبَ فيه بنافِلة كان كمَن أدَّى فريضةً فيمَا سِواه، ومَن فطَّر فيه صائِماً كان له مثلُ أجره ولو فطَّرَه على تَمرةٍ أو مَذقةِ لَبَنٍ. فيه ليلةٌ خيرٌ مِن ألف شَهر، مَن قامَها إيماناً واحتِساباً غُفِر له ما تقدَّم مِن ذنبِه، ومَن صامَ شهرَ رمضان وقامَه إيماناً واحتِساباً غُفِر له ما تقدَّم مِن ذنبِه. وكان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أجوَدَ النَّاس، وكان أجوَدَ ما يكونُ في رمضان، والجُودُ ليس مقصُوراً على بَذل المال، بل جُودٌ في كل أعمالِ الخير والبِرِّ والطاعاتِ والقُرُبات. والخَيراتُ لا تُحصَرُ أنواعُها ولا تُحدُّ أبوابُها؛ مِن صلواتٍ، وزكَواتٍ، وصدَقاتٍ، وصِيامٍ، وقراءةِ قُرآن، وعمرة إلى بيت الله الحرام، واعتِكافٍ، وتفقُّد ذَوِي الحاجاتِ والأيتام والأرامِل والمساكِين، وذوِي القُربَى ممَّن لا يسألُون النَّاسَ إلحافاً. وبر للوالدين وصلة للأرحام، ولا تنسَوا زِيارةَ المريض، والإحسانَ إلى الجار، وطلَبَ العلمِ، والدعوةَ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإغاثَةَ الملهُوف، وإنصافَ المظلُوم، وكفَّ الظالِم، ورِعايةَ الأولاد والأُسَر، وإعمارَ المساجِد، والقِيامَ بالمسؤوليات، وأداءَ الواجِبات، وكلَّ قولٍ حسنٍ وفِعلٍ حسنٍ. أيّها المسلمون. ثم تأمَّلُوا صِفاتِ المُسارِعين والسَّابِقين إلى الخيرات، يقولُ عزَّ وجلّ في سورة المؤمنون: ((إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)). وجاء في صحيح الترمذي عن أمّ المؤمنين السيّدة عائشةُ رضي الله عنها قالت: ((سألتُ

رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ عن هذِهِ الآيةِ: "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ " قالت: أَهُمُ الَّذينَ يشربونَ الخمرَ ويسرِقونَ؟ قالَ: لا يا بنتَ الصِّدِّيقِ، ولَكِنَّهمُ الَّذينَ يصومونَ ويصلُّونَ ويتصدَّقونَ، وَهُم يخافونَ أن لا تُقبَلَ منهُم. "أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ")). لماذا يا عباد الله، لماذا كان هذا الجوابُ؟! لأنّ في النُّفوسِ مَن هي عامِلةٌ ناصِبة، تَصلَى ناراً حامِية، وفِيهم مَن عملُه كسَرابٍ بِقِيعةٍ، أو كرَماد اشتَدَّت به الرِّيحُ في يَومٍ عاصِفٍ. نعُوذُ بالله من الخُذلان. نعم. حفِظَكُم الله، مَا حمَلَ هؤلاء الصالِحين على المُسارَعَة والمُنافسَة إلا خوفُهم ووجَلُهم وإشفاقُهم، وعظيمُ يَقِينِهم باليومِ الآخِر، وأنّ المرجِعَ إلى الله. يقول تعالى في سورة البقرة: ((فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)). ويقول سبحانه في سورة آل عمران: ((فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)). أيّها المسلمون. وتتجلَّى صُورةُ المُبادَرة والمسارعة إل فِعل الخيرات في هذا التوجيهِ النبويّ الكريم؛ ففي الحديث الصحيح المتّفق عليه. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ. تَخْشَى الفَقْرَ، وتَأْمُلُ الغِنَى، ولَا تُمْهِلُ حتَّى إذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، ولِفُلَانٍ كَذَا. وقدْ كانَ لِفُلَانٍ)). بل يتجلَّى ذلك أكثرُ وأكثرُ في قولِه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي وأحمد. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((بادِرُوا بالأعمالِ فِتنًا كقِطَع الليلِ المُظلِم، يُصبِحُ الرجُلُ مُؤمناً ويُمسِي كافِراً، ويُمسِي مُؤمنًا ويُصبِحُ كافِراً، يَبِيعُ أحدُهم دينَه بعَرَضٍ مِن الدنيا))؛ وفي صحيح الترمذي. عن أبي هريرة رضيَ اللَّه عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قَال: ((بَادِروا بالأعْمَالِ سَبْعًا: هل تنتظرون إلَّا فقرًا مُنْسيًا، أو غِنًى مُطْغيًا، أو مرضًا مُفْسِدًا، أو هَرَمًا مُفْنِدًا، أو موتًا مُجْهِزًا، أو الدَّجَّالَ فشَرُّ غائبٍ يُنْتظر، أو السَّاعةَ فالسَّاعةُ أدْهَى وأَمَرُّ)). أيّها

المسلمون. وما معنى: (بادِرُوا بالأعمالِ فِتناً)؟ أيْ سارِعُوا قبلَ وقوعِ الفِتَن، وما هي الفِتَنُ؟ هي كلُّ ما شغل عن طاعةِ الله، أو أوقَعَ في معصِيةِ الله، ولعلَّ حالَ أهلِ هذا العصرِ وما شُغلوا به من هذه المُشغِلات والأجهزة والآلات والأدوات مِن أعظم الشواهِدِ والمُخِيفات. ولهذا عظُمَت العبادة زمن الفِتَن؛ لصُعُوبتها ومشقَّتها، ففي صحيح مسلم عنْ مَعقِلِ بن يسارٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((العِبَادَةُ في الهَرْجِ كهِجْرةٍ إلَيَّ)). يقول أهل العلم: وسبَبُ كثرةِ فضلِ العبادة زمنَ الفِتَن: لأنّ النَّاس يغفلُون عنها، ولا يتفرَّغُ لها إلا الأفراد. فلله أقوامٌ يُبادِرُون الأوقات، ويَحفَظُون الساعات، ويُلازِمُون الطاعات، ويُسارِعُون في الخيرات، فمَن قدَّم شيئاً اليوم قَدِمَ عليه غداً، ومَن لم يُقدِّم شيئاً قَدِمَ على غير شيءٍ، ومَن خافَ أدلَجَ، ومَن أدلَجَ بلَغَ المنزِل، ومَن جدَّ وجَد، ومَن سهِرَ في طلَبِ المعالِي ليس كمَن رَقَد، ولا مُستراحَ للمُشمِّرين إلا تحت شجَرَة طُوبَى، ومَن صحَّ إلى اللهِ عز وجل فِرارُه فنِعمَ القرارُ قرارُه. أيّها المسلمون. إنّ بلوغ شهر رمضان، نعمة عظيمة، وفضل كبير من الله تعالى. حتى إنّ العبد ببلوغ رمضان وصيامه وقيامه يسبق الشهداء في سبيل الله الذين لم يدركوا رمضان. ففي صحيح ابن ماجه وأحمد والبيهقي. عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رضي الله عنه: ((أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَلِيٍّ قَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَكَانَ إِسْلامُهُمَا مَعًا، وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنَ الآخَرِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنْهُمَا فَاسْتُشْهِدَ، ثُمَّ مَكَثَ الآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً ثُمَّ تُوُفِّيَ. قال طَلحةُ: فرأيتُ فيما يَرى النَّائِمُ كأنّي عِندَ بابِ الجَنَّةِ. إذا أنا بهما وقد خرَجَ خارِجٌ مِنَ الجَنَّةِ، فأذِنَ للذي تُوُفِّيَ الآخِرَ منهما، ثم خَرَجَ فأذِنَ للذي استُشهِدَ، ثم رَجَعا إليَّ فقالا لي: ارجِعْ؛ فإنَّه لم يَأْنِ لكَ بَعدُ. فأصبَحَ طَلحةُ يُحدِّثُ به الناسَ، فعَجِبوا لذلك، فبلَغَ ذلك رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: مِن أيِّ ذلك تَعجَبونَ؟ قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هذا كان أشَدَّ اجتِهادًا، ثم استُشهِدَ في سَبيلِ اللهِ، ودخَلَ هذا الجَنَّةَ قَبلَه. فقال: أليس قد مَكَثَ هذا بَعدَه سَنةً؟ قالوا: بلى. وأدرَكَ رَمَضانَ فصامَه؟ قالوا: بلى.

وصلَّى كذا وكذا سَجدةً في السَّنةِ؟ قالوا: بلى. قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فلَمَا بَينَهما أبعَدُ ما بَينَ السَّماءِ والأرضِ)). الله أكبر. إنه فضل رمضان. بلّغنا الله وإيّاكم بالصحة والعافية. وحُسن الطاعة. فاتّقوا الله عباد الله. وبادروا إلى الخيرات، وسارعوا إلى الصالحات، تنالوا البركات، وتستجاب منكم الدعوات. وتُفرج لكم الكربات، وتنالوا المرضات من رب البريات. واحرصوا على النية الصالحة والعزم الجاد على الإجتهاد في طاعة الله في رمضان. وحريٌّ بأفراد الأسرة والقرابة والجيران وزملاء المهنة أن يتواصوا بالحق. ويتعاونوا على أعمال البر والتقوى في هذا الموسم المبارك. فاللهم ارزقنا فِعل الخيرات، وثبّت قلوبنا على المبادرة إلى الطاعات، وارزقنا الجنّة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأجرنا من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، واجعل خير أيامنا يوم نلقاك. برحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم بارك لنا فيما بقي من شعبان، وبلّغنا برحمتك شهر رمضان، يا ذا الجلال والإكرام. اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، وبالسعادة آجالنا، وبلّغنا ممّا يرضيك آمالنا. اللهم ومَن قضيتَ بقطع آجالهم منّا. وتوفّيتهم إليك. ولم تبلّغهم شهر رمضان، فنسألك اللهم أن تغفر لهم وترحمهم، وتعافهم وتعفو عنهم، وارحمنا يا مولانا إذا صِرنا إلى ما صاروا إليه تحت التراب، ونجّنا من عذاب القبر ومن هول الحساب. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين. اهـ